د. عبد الإله ميقاتي

خواطر إيمانية

كيف نحمي بالإيمان:
أنفسنا ومجتمعنا ...
ونعيد بناء حضارتنا ...

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

ملحق رقم 1

بين العقيدة والقيم

كنا في كتابنا «مسيرة التعلم عند العرب» قد تناولنا فلسفة التربية والتعليم وأشرنا إلى أنها يجب أن تنطلق وتتماشى مع عقيدة المجتمع، وأن تسعى المؤسسات التربوية والتعليمية، لزرع القيم الإنسانية المنبثقة عن عقيدة المجتمع، حتى لا يختلّ توازنه، ولكي تكون مسيرة الأجيال فيه على صراطٍ مستقيم، مستمدٍّ من الثوابت التي يؤمن بها معظم أفراد المجتمع، وتشكل نبراسه المنير. وسواءٌ كانت هذه العقيدة إيمانية مُنزلةً من ربّ العالمين، أم وضعيةً أخلاقية، اجتماعية، أو سياسيةً متفقاً عليها بين أبناء الوطن الواحد، فإن القيم الإنسانية فيها تبقى مشتركة في معظمها، كالصدق، والوفاء، والمروءة، والشجاعة، والحياء، والإخلاص، والأمانة، والصالح العام، والعمل بروح الفريق، والعدل، والمساواة في الحقوق والواجبات وغيرها.

وفي هذا المقام، أود أن أشير إلى أهمية التلازم بين العقيدة والقيم، كما هي في الإسلام، ودور العقيدة في تثبيت القيم في نفوس البشر وتزكيتها، وأثر ذلك في بناء شخصية الإنسان.

وأستعين على ذلك بتشبيه بناء شخصية الإنسان بالشجرة، جذورها تمثّل العقيدة وهي لا تُرى في ذاتها لأنها ضاربةٌ في الأرض، فالعقيدة مقرّها القلب، لأن «الإيمان هو ما وقر في القلب...»، كما ورد في الحديث النبوي الشريف. وبالتالي، فإن تكوين شخصية الإنسان، يبدأ مع نمو الروح الإيمانية وزرع العقيدة في صلب الذات الإنسانية، وهذا التكوين الروحي يسبق تكوين العقل ونماءه. ذلك أن تكوين العقل ونماءه لا يكون إلا بالعلوم والمعارف التي يتلقاها الإنسان بالتدرج في البيت أولاً، ثم يكون معظمها في المدرسة والجامعة، ثم في ميادين العمل والبيئة المحيطة. أما الروح الإيمانية، فهي من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، «يولد أحدكم على الفطرة...»، والتي تبدأ مع قيام الطفل بالعبادات والشعائر الدينية – مقلّداً ومبادراً – من حفظٍ لبعض الآيات القرآنية، وصلاةٍ وصومٍ، وهذا ما يكون غالباً بين الخامسة والثامنة من عمر الإنسان. والتربية الإيمانية أولاً، تساهم في تقنين جوانب الشهوة والغريزة وتجعلهما في ميادين الخير. ولعل من أهم خصائص التعليم في عصر الحضارة الإسلامية، أن امتزجت التربية الدينية بالعلم، بل سبقت التربيةُ الدينيةُ والتعليمُ الدينيُ العلومَ الدنيوية، فكان الولد يحفظ القرآن الكريم أولاً، ثم السنة النبوية، ويتعلم الصلاة، ويتعلم آداب المعاشرة، واحترام الناس،وحق الطريق، وأدب الخطاب والحوار.... قبل أن يتعلمَ علوم الحساب والفيزياء والفلك وغيرها. وبفضل ذلك كان

الناس يصبحون علماء في سن الخامسة عشرة، كابن سينا مثلاً وغيره من العلماء الذين ذاع صيتهم في الآفاق. ذلك «أن تربية الروح وصقلها يسمح بتجليات العقل وإفرازاته». كما يقول أهل الحكمة.

وأما الجذع فيرمز إلى العبادات، لأنها أول ما ينتج عن الإيمان. يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ...﴾ [التوبة : 18]، ويقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان» (الترغيب والترهيب 1/ 174). والعبادات مرئية كما جذع الشجرة. يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : 56]، والعبادات هي أول ما يؤمر به المرء بعد إسلامه. ولا أدلّ على ذلك من قول رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلى علي بن أبي طالب عندما ابتعثه إلى اليمن على رأس سرية، حيث يقول: «إذا نزلتَ بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، وادعهم إلى أن يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإن قالوا نعم فمرهم بالصلاة، فإن أجابوا فمرهم بالزكاة، فإن أجابوا فلا تبغ منهم غير ذلك.....»، ومع أداء الفرائض والقيام بالعبادات، يبدأ تلقي العلم، وينمو العقل، ويشتدّ الساعد.

وأما الأغصان، فهي تمثل القيم السلوكية الإنسانية التي تتغذى من الجذور، عن طريق جذع الشجرة. فالصلاة «تنهى عن الفحشاء والمنكر»، والصوم تهذيبٌ للنفس وتعويدٌ لها على

تـرك المنكرات، والتمسـك بأخلاق الإسـلام الفاضلـة، كما ورد فـي الحديث الشـريف «إذا أصبح أحدكم يومـاً صائماً، فلا يرفث ولا يجهـل، فـإن امرؤ شـاتمه أو قاتله فليقل إني صائم إني صائم» (صحيـح مسـلم، كتاب الصيـام، باب حفـظ اللسـان للصائم، ح 160/ 1151، 2/ 806). والزكاة طهرة للنفس البشـرية، وتكافل في المجتمع، وقوة ونماء حقيقي له، وهي مطهّرة لصاحبها من خبث البخـل وحب المـال، وبإخراجهـا ينعم المجتمـع كل المجتمع، ويتآلف أفراده جميعاً ويتكافلون ويتكاتفون، وهكذا دواليك...

وعن الأغصان، تخرج الثمار التي تمثل عمل الإنسان وسعيه في هذه الحياة، لأنها هي التي تنفع صاحبها وتنفع المجتمع كله، فالثمار هي الناتج الأساسي للشجرة، كما عمل الإنسان هو الذي يعكس دوره في المجتمع وسعيَهُ فيه.

والاعتناء المتواصل بالشـجرة، يكون، في أوقات معينة، من خلال سـقايتها، وتسميدها في الأرض المجاورة للجذع، وحراثة هذه الأرض، حتى تمتص منها الجذورُ ما يلزمها من غذاء، فتقوى وتزداد فعاليتها، ويقوى الجذع ويشتد عوده.

كذلـك الإنسـانُ الصالـح، هـو بحاجةٍ إلـى ما يقـوّي إيمانه وعقيدته، ويزيد من عزيمته، فقد شرع الله له محطات تنقيةٍ إيمانية معروفـة، كالصـلاة وما تمثله من وقوف بين يدي الله «أرأيتم لو أنّ نهـراً بباب أحدكم يغتسـل فيه كل يوم خمسـاً ما تقـول ذلك يُبقي من درنه؟ قالوا: لا يُبقي من درنه شـيئاً. قال فذلك مثل الصلوات

الخمس يمحو الله بهن الخطايا» (صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة. باب الصلوات الخمس كفارة ح(497) 1/ 282). ومن هذه المحطات الإيمانية يوم الجمعة من كل أسبوع، وما فيه من فضائل، وصوم رمضان والأيام التي يستحب فيها الصيام، وموسم الحج والعمرة للعمرة وغير ذلك، مما يشكل محطات زمنية، يستشعر فيها المسلم صوابية وقوة عقيدته، فيزداد إيمانه، وتنقى عباداته، وتطهر قيمه، ويستقيم سلوكه أكثر فأكثر.

ويكون الاعتناء بالشجرة من خلال رشّ أغصانها بالمبيدات لحمايتها وحفظها من ملوثات وميكروبات الجو الخارجي الموبوء، وتشذيب أغصانها بين الفينة والأخرى. وكذلك حال القيم الإنسانية، فمنها ما يجب الاعتناء به باستمرار، وتقويته، وإعطاؤه المدى الأوسع، كالصدق مثلاً، إذ يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة : 119]، وقد وردت آيات قرآنية، وأحاديث نبوية كثيرة تأمر بالصدق، وتنهى عن الكذب، ولم يرد أمرٌ من الله تعالى بأيّ من القيم، كما ورد في الصدق لما له من أثر كبير في صلاح المجتمع، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الصدق يهدي إلى البِر وإن البِرّ يهدي إلى الجنة». وكذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لأن يضعني الصدق، وقلّما يضع، أَحب إليّ من أن يرفعني الكذب، وقلّما يفعل». ويقول بعض الحكماء: «الصدق منجّيك وإن خفته، والكذب مُرديك وإن أمنته».

أختم هذه المقارنة وهذا التشبيه، بالآية القرآنية الكريمة، في سورة الأعراف ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا...﴾ [الأعراف : 58]، والآية الكريمة في سورة إبراهيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۞ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم : 24– 25]

فالعقيدة أصل، والقيَم فرع، وهذه القيم تقوى وتضعف بقوة العقيدة وضعفها. ومع قوة وأصالة هذه القيم الإنسانية، يقوى السلوك الإنساني السوي، ويزداد نفع المجتمع، وترتفع الحضارة الإنسانية وتزداد سمواً.

لا شك في أن الحضارة الإسلامية، قامت وانتشرت في أرجاء المعمورة، وأسست لما بعدها، بفضل التلازم الوثيق، بين القيم الإسلامية السمحة التي تغذّت وتمكّنت في النفوس، بفضل التربية الدينية على أسس العقيدة الإسلامية، من ناحية، وبين العلم الذي ازدهر وتطوّر، بشكلٍ ملحوظ، ولم يسبق له مثيل، استجابة للدعوة الربانية ﴿...وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه : 114]، ولدعاء النبي الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى: «اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً». فكان طلب العلوم على أنواعها، جزءاً من عبادة الإنسان يتقرب بها إلى ربه.

وقد تكلمتُ بإسـهاب عن هذه المرحلة في كتابي «مسـيرة التعلم عند العرب».

فـي المجتمعات التعددية، حيث تكثـر الطوائف والمذاهب وتتعـدد الأحـزاب والتيـارات، وبالتالي تتعدد العقائـد التي يؤمن بهـا أفـراد المجتمع، يصبـح الاهتمام بالقيم الإنسـانية – الجامعة والمشـتركة بيـن العقائد – مجرّدةً من عقيـدة معينة، أكثر صعوبة، وأشدّ إلحاحاً، بالمقارنة مع ما إذا كانت التربية على القيم مرتبطة بعقيدة واحدة معينة.

نستدل على ذلك بالتجربة اليابانية بعد الحرب العالمية الثانية في العام 1945 حيث خرجت اليابان من هذه الحرب منهكة تماماً، واقتصادها مدمر تدميراً كاملاً، وقد وقّع إمبراطور اليابان على وثيقة الاستسـلام بشـروط مذلة. فقد قامت اليابان بإدخال مادة إلزامية، في جميع مراحل التعليم، من الحضانة إلى الجامعة، وهي Moral Education، أي التربيـة علـى القيم وهـي مبنية على ثلاثة محاور، «القيم الإنسـانية – الإخلاص للوطن – وحب الإمبراطور»، وهي مسـتمدة من العقائد التي كانت سـائدة قبل الحرب واشتهرت بها الديانات البوذية والشنتوية والفلسفة الكونفوشيوسية.

يقـول الباحث المصـري د. أحمد نبوي، الـذي تلقى علومه الجامعيـة العليا في اليابان، في مقالـة له بعنوان «منظومة القيم في المجتمع الياباني»، نُشرت في جريدة الأهرام العدد 44718 تاريخ 13 أيـار 2009: «يتسـاءل الكثيرون عن أسـرار النهضة الاقتصادية

والتكنولوجيـة اليابانيـة. وفي حين يعـزو البعض تلك النهضة إلى العمل الدؤوب المستمر، يحاول البعض الآخر تقديم تحليل أكثر عمقاً، يأخذ في الاعتبار مكونات الثقافة اليابانية بصفة عامة، وتأثير الديـن بصفة خاصة. فمن خـلال تضافر الديانة البوذية واندماجها مـع بعـض عناصر الفكـر الكونفوشيوسـي والديانة الشـنتوية، تم إرساء القاعدة الصلبة التي على أساسها نشأت وتطورت المنظومة القيميـة اليابانية. ولهذا فليس من المسـتغرب إمكانية تتبع العديد مـن القيـم اليابانية المهمة وردها إلى أصولهـا الدينية. فمثلاً يركّز اليابانيـون فـي مدارسـهم علـى مبـدأ «الجـد والاجتهـاد أهم من الموهبـة والـذكاء الفطـري للطفـل»، ولـذا تراهم يسـتعملون في تعابيرهم عبارتي «سـأبذل قصارى جهدي» و« سـأعمل على ذلك بكل جدية»، لأنهم يؤمنون بأن النجاح والتفوق، يمكن أن يتحقق بالاجتهـاد وبـذل الجهـد وليس بالـذكاء فقط، فالجميع سواسـية وخُلقـوا بقـدر من الذكاء يكفيهم. وهمـا، أي النجاح والتفوق، لا يتحـدّدان باختـلاف الموهبة والذكاء، ولكـن بالاختلاف في بذل الجهـد. وهـذه القيمة، قيمـة الإصـرار وإمكانية تحقيـق النجاح، ترتبـط ارتباطـاً وثيقـاً بالاعتقاد البـوذي اليابانـي بإمكانية وصول أي شـخص إلى الحكمة والتنور المؤديين إلى السـعادة المطلقة. كمـا سـاهمت التعاليـم الدينيـة البوذيـة القائمـة علـى الاعتدال، وعلى تجنب الانغماس في الشـهوات الحسـية والمادية في تقبّل الأشـياء الصغيرة البسيطة، «كما سـاهمت فكرة المعاناة في شحذ

هممهـم لمواصلـة الحيـاة وللتغلب علـى المصاعب، وللشـعور بالحـب نحو خالق الكـون حتى يمكنهم الخلاص مما يقاسـونه. وعلـى هـذا شـكلت فكـرة المعانـاة نوعـاً مـن القدريـة الإيجابية لا السـلبية، قدرية تقوم على التسليم والخضوع والطاعة للسلطة، والإخـلاص للوطن، وحب الإمبراطور، حبـاً يصل إلى التقديس والعبـادة». وبفضل ذلك اسـتطاعت اليابـان أن تنهض من كبوتها بعد الحرب لتحقق تقدماً علمياً وصناعياً غير مسـبوقين في تاريخ العالم الحديث.

ولكـن ومـع مـرور الزمـن ومـع التخلـي الرسـمي والفعلي عـن الالتزام بالعقائـد الدينية، تراجع الالتـزام بالتربية على القيم، وأصبحت هذه المادة اختيارية في البرامج التعليمية، بدل ما كانت إلزاميـة في فتـرة ما بعد الحـرب. وتراجع واندثر الالتـزام الديني بالعقائد التي كانت سائدة قبل الحرب عند الناس، فتراجع مستوى الأخـلاق لـدى طلاب المدارس والجامعـات وتزايدت معدلات الجريمة بين الأحداث، وفي تقرير لمراسل الجزيرة، قالت مديرة إحـدى المـدارس الابتدائية، وتدعى ميكونا روسـيه، «لاحظنا في السـنوات الأخيـرة تزايد المشـاكل العائلية، وابتعـاد الأطفال عن ذويهم وانعدام التواصل الأسري، ونعتقد أن الحل هو في استعادة الأخـلاق التي تحافظ على الاحترام بين أفراد المجتمع»؛ ولذلك « أصدرت الحكومة اليابانية وثيقة توجيهات تجعل تعلم العادات الحميدة التي كانت سـائدة في حقبـة إيدو (حقبة الالتزام بالعقائد

البوذية والشـنتوية وغيرها) قبل نحو ثلاثة قرون مادة أساسـية في المدارس بحلول العام الدراسي 2018، وعزت قرارها إلى وجود علاقة بين تراجع مستوى الأخلاق لدى طلاب المدارس الابتدائية وبيـن تزايد معـدلات الجريمة بين الأحـداث». (موقع الجزيرة – اليابان تلزم طلابها بتعلم الأخلاق عام 2018).

أخلص إلى القول بأن التربية على القيم الإنسـانية والتي هي بمجملها منبثقة عن العقائد الدينية تتراجع مع مرور الزمن، إذا لم تكن مؤسسـة على العقيدة الإيمانيـة ومرتبطة بها، ومنضبطة معها في إطار الوازع الديني والرقابة الذاتية على هذه القيم والسلوكيات المنبثقـة عنهـا. ذلك أن انسـلاخ القيم عن العقيدة، يشـبه انفصال الأغصان عن الشجرة، فلا تلبث طويلاً حتى تذبل وتموت.

نشرت في مجلة المكارم
العدد السابع – حزيران 2016.

الكتاب على الموقع الإلكتروني:

www.abdulilahmikati.net